المحاضرة الثالثة عشرة: ميشال فوكو

أنجز ميشال فوكو Michel Foucault (1926-1984م) عملا نقديا رائعا معتمدا على النبش في السياق الإبستيمولوجي العام لولادة المعرفة في الغرب، وقد لخّص جهده وطريقته في مفهوم "أركيولوجية المعرفة"، التي أبرز من خلالها أن ما أنتجته الحضارة الغربية من قمع وخلق سياج لمراقبة الناس، والتحكم فيهم من خلال أجسادهم، يدلّ على أن الهوية الغربية مجرد وهم، وتتبعه لمشكلة الحقيقة في التاريخ الغربي من خلال المنهج الأركيولوجي أبرز زيف القيم التي كانت تدافع عنها هذه الحضارة مثل التقدم و الحرية والإنسانية.....إلخ .

يُعدّ ميشيل فوكو واحدا من أكبر الفلاسفة حضورا وإبداعا وشهرة في الفلسفة الغربية المعاصرة تأثر كثيرا بكتابات فلاسفة كبار مثل "نيتشه" و"هيدجر" و"ليفي شتراوس" في صياغة فلسفته ورؤيته الفكرية القائمة على تجاوز الخطاب الإنساني، أو النزعة الإنسانية من خلال العمل على تقويضها. فهو يرى أن النزعة الإنسانية لم تخلق لدى الإنسان سوى الأوهام والأساطير معتبرا أن الإنسان ما هو إلا مجرد انعطاف في معرفتنا، وهو من ابتكارات الفكر الحديث. أي أن الإنسان لم يوجد قبل نهاية القرن الثامن عشر، فقد صنعته المعرفة الحديثة بأنواعها المختلفة اللغوية والإقتصادية والبيولوجية. مع العلم أن الإنسان المقصود هنا هو الإنسان بوصفه أداة معرفة. يقول فوكو:" لم يكن هناك وجود للإنسان قبل نهاية القرن الثامن عشر. ولا لزخم الحياة أو خصوبة العمل أو كثافة اللغة التاريخية. إنه مجرد مخلوق حديث أبدعه العلم منذ أقل من مئتي سنة".

ولما كانت حالة الحداثة مشبعة بقيم عصر الأنوار: " الإنسان كوعي وإرادة، العقل والعقلانية المتطورة، التاريخ والتقدم، الإمكانيات الواقعية للتحرر. كما كانت تحمل في ذاتيتها نرجسية متعالية على أنها تمثل المرحلة النهائية للتاريخ، لحظة امتلاء العقل واستيعاب الكلي وامتثال الحرية. كانت الفلسفة تمشي في طريق مغاير تماماً مع فوكو، وهذا يمثل البدايات الأولى لزعزعة الإنسان من موقعه و مكانته بل قل إلى درجة نعيه. وعليه فقد صار الفلاسفة المواجهين للنزعة الإنسانية يخوضون معارك شرسة لإنزال الإنسان عن عرشه، كونه ليس محط اهتمام، ولا يساهم في التاريخ، ولا يحمل وعياً مرشداً. " وبدل الإنسان المنتج، نسق الذات، وبدل الإنسان الواعي والفاعل والمسؤول، الخطاب الغامض للاشعور، وبدل الإنسان العالم والباحث، المعرفة كسياق بدون ذات. لقد اعتمد فوكو على النزعة التحليلية المعاصرة التي سادت أوروبا في الخمسينات من القرن العشرين حيث النزعة العلمية والصارمة التي تملكها، إذ اهتم كثيرا بنشأة العلوم وتاريخ الأفكار من حيث الانقطاعات والانفصالات وعن الثوابت التي تحكم حقل الإنتاج المعرفي والنقاش الدائر في عصر معين، وبذلك شكل فوكو نزعة جديدة ومغايرة عن سابقتها تلغي كل المفاهيم التي جاءت بها الحداثة والمتمثلة بالاهتمام بالذات والحقيقة والعلم والعقل والمعرفة والإرادة الإنسانية، وهو بذلك يعلن موت ذلك الإنسان. لم يعد هناك مجال آخر للتحرر، إنّ عقل التنوير الذي خلق الحريات هو نفسه الذي خلق السلاسل والأغلال أيضاً. لقد انقلبت الأمور إلى عكسها، والعقل الذي صنع كل

هذه الحضارة يوشك أن يدمرها أيضا إذا لم يردعه رادع. لقد انقلب العقل إلى جنون: جنون الهيمنة، أو جنون العظمة، أو جنون التسلط والتحكم بكل شيء.
لا شك أن ميشيل فوكو قام بأكبر محاولة لنقد العقل الغربيّ، وتعرية ملابساته السلطويّة وكلّ أشكال الهيمنة التي ترافقه. وأثبت أنّ هذا العقل ليس بريئاً إلى الحدّ الذي يوهمنا به، وليس معرفياً محضاً كما يزعم، وإنما هو متورط في ممارسات القوة والهيمنة والتسلُّط. أو قل إنّه تحوّل من عقل تنويريّ استكشافي تحريريّ إنسانيّ، إلى عقل قمعي شبيه بالأخطبوط الذي يهيمن على كل مستويات الوجود الاجتماعي للبشر. ثم انضافت إليها مؤخرا أجهزة المراقبة أو كاميرات التصوير الأتوماتيكية المسلطة على الأماكن العامة والساحات والشوارع إلى درجة انه لا يمكن لأيّ شخص أن يفلت منها. وقد أصبحت تسجل كل شاردة وواردة عنك مهما فعلت وأينما حللت وارتحلت. هذا هو مجتمع "المراقبة والعقاب" الذي تحدث عنه ميشيل فوكو في كتابه الشهير الذي يحمل نفس الاسم. فمجتمع الحداثة يطوعك ويدجّنك شئت أم أبيت، بشكل مباشر أم غير مباشر.

الإنسان حسب "فوكو" مجرد شيء داخل نظام الأشياء، وولادته ليست بالمفهوم البيولوجي للكلمة بل هي ولادته في ذهنيته، ولادته ضمن مدارات بحثه ومعارفه. ليكتشف ذاته من خلال نظام الأشياء، بحيث يبحث عن نفسه في قانونها الخاص. وبالتالي فلا يمكن التعرف عليه إلا من خلال إنتاجه أو من خلال كلماته أو الأشياء التي ينتجها. بالتالي فإن إعلان موت الإنسان من قبل فوكو في كتابه الكلمات والأشياء، ليس موتاً بيولوجياً ولا هو انتهاء بمحض إرادة الطبيعة ولكنه موت في إطاره المعرفي المتشكل عبر الآليات المبتكرة للبحث الأركيولوجي المبني عليها الأساس النظري لمشروع فوكو الفلسفي. فالمعرفة ستتجاوزه نحو قضايا أخرى ونحو إشكاليات يفرضها عليها " سياق " آخر. ففي حديث له عن معنى السلطة يرى أنه في زمن مضى من تاريخ البشر كان الملوك ينفردون بالسلطة ويقتلون كل من يخالفهم، أما المجتمع المعاصر فإنه لا يقتل، بل يحرص على الحياة، وتكثر مؤسساته التي تمارس سلطة غير مرئية يضطر الإنسان إلى الخضوع لها في كل تحركاته حتى يكاد يفقد ذاته ويموت. لم يكن الإنسان يوما سيد مصيره أبدا، وإن كان سارتر يتحدث كثيرا عن الحرية فذلك مجرد حلم جميل. إن إنسان القرن العشرين يموت في اليوم الواحد عدة مرات، "ويعاني كل يوم من إرهاب الأنظمة السياسية المختلفة، ويعاني من ويلات الحروب ووسائل الإبادة الجماعية في بقاع متعددة من العالم. ويعاني نتائج التكنولوجيا و التقدم الصناعي الهائل".